بغداد في ظلّ الحكم المغولي الإيلخاني (٦٥٦ - ٧٣٦هـ/١٢٥٨ - ١٣٣٠م) تكوين طبقي جديد

الأستاذ المتمرس الدكتور سوادي عبد محمد
الجامعة الإسلامية – النجف الأشرف
abdswadi@gmail.com

Baghdad Under the Rule of ILkhanate (656 - 736H/1258-1330AC)
New Social Class Composition

Prof Dr. Swadi A. Mohammed
Islamic University , Al-Najaf Ashraf

الملخّص :

نجم عن استباحة المغول لبغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م متغيرات إثنولوجية اجتماعية في التركيب السكاني، وهو ما يحملنا على تقييد هذا البحث واذاعته بما يشير إلى نشوء طبقات جديدة في المجتمع البغدادي، منها طبقة الأمراء والحكام الأعاجم ومنها طبقة العلويين والطالبيين ومنها طبقتي العائلات القديمة والعائلات الجديدة ثم الطبقة العامة.

وقد تناولت بعض المصادر الأولية الأساسية المتاحة لدينا هذا التكوين الطبقي الجديد، بشيء من التفصيل، وبعضها الآخر قصر على إشارات وإيماءات مقتضبة، ونحن انتهينا بها، بعد تحليلها وتمحيصها وإمعان النظر فيها إلى ما يسند البحث ويطمئن القارئ إلى ما يفيده.

وكان لكل طائفة من المصادر تلك عنايتها الطبقة أو طبقات من المجتمع البغدادي الذي بدأ ينشأ بعد توطد الحكم المغولي الإيلخاني، فهذا رشيد الدين فضل الله الهمداني، يشير إلى وجود طبقة الحكام الأعاجم، ثم تبعه مؤرخون يؤكدون معلوماته ويزيدون عليها. وهذا صاحب كتاب الحوادث الجامعة يذكر التكتل العلوي في بغداد بعد الحادثة ثم يعززه مؤرخون معاصرون لما جاء به. وهذه مصادر تتحدث عن العائلات التي مارست الحكم في العهد العباسي وكان لها ظهور أكثر حضوراً في العصر المغولي الإيلخاني، وهذا المؤرخ البغدادي عبد الرزاق بن الفوطي والمؤرخ النصراني غريغوريوس ابن العبري، يؤكدان، أن نمو الطبقة العامة البغدادية التي كانت تؤلف أكثر سكان بغداد، بعد أن كادت تباد على يد الكتائب المغولية المهاجمة إبان سقوط بغداد، قد استعادت حضورها وأصبح وجودها رهين للتوازن الطبقي في المجتمع البغدادي.

وإلى ذلك تجد خلال الثمانين عاماً التي حكم فيها المغول الإيلخاني العراق، تسيّد طائفتين دينيتين هما الطائفة المسيحية والطائفة اليهودية، فالأولى ضمنت رعاية المغول منذ استباحتهم بغداد وتعاونهم مع الكتائب المغولية والثانية احتلت مكانتها النافذة سياسياً واجتماعياً حين كان عميدها سعد الدولة اليهودي الذي عيّنه السلطان الإيلخاني أرغون، متولياً لديوان الممالك وهي من كبريات الوظائف في الامبراطورية المغولية.

الكلمات المفتاحية : المغول الإيلخانيون ، بغداد ، هولاكو ، العلويون ، العباسيون ، التكوين الطبقي ، المجتمع البغدادي ..

Abstract:

Searching for Baghdad for City after the Mangol Ilikhan Invasion Incident and its fallen, Politicallcy and socially in (1258 AF/656H) became well - Known for a lot of researchers and Leanrners as wall as a lot of People they Knew how Baghdad's social, ethnological and demographic milestones had sisappeared, and its fallen effect made the whole Islamic world in an earthquake .

This is Know, but what most people don't know is that side of research and it is did this city get back its social structure and how did restore its social classes in the shadow of tyrant pagan occupier. These classes have become have their own Limites frames and its categories which have the Baghdadi society and the first thing we sould notis in Baghdad is the Civilization progress in economic, soucial, int ellectual Scientific and sultural conditions which first basic contemporary resources had come with it and put in it a detailed information in all this fields.

Key words : Mongolian ilkhanon , Bagdad , Hulagu , Alawites , The Abbasids , Class Composition , Baghdadi Society .

المقدمة :

حكم المغول الإليخانيون العراق، بعد إستباحتهم بغداد عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حتى عام (٧٣٦هـ/١٣٣٠م) وخلال الثمانين عاماً هذه، شهد المجتمع البغدادي، متغيرات واصطفافات إثنولوجية وديموغرافية واجتماعية في التركيب السكاني، هنالك تتوفر لدينا معلومات تشير إلى ظهور طبقات جديدة ومنها طبقة الأمراء والحكّام الأعاجم، ثم طبقة العلويين ثم طبقة لعائلات قديمة مارست الحكم أيام العباسيين واستمرت على ذلك أيام الإيلخانين، ثم عائلات جديدة شاركت في حكم البلاد، منهم عباسيون وعلماء دين وأغنياء[١] ثم الطبقة العامة التي ظلّت أكثرية سكان بغداد[٢].

لرشيد الدين فضل الله الهمداني (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) إشارات إلى وجود طوائف من فرسان المغول في بغداد، يقدّرهم بثلاثة آلاف كانوا يغشون معسكراً لهم في غربي بغداد[٣] إلى جانب عشرة آلاف من الجند المغولية، كانوا يعيشون في بغداد برفقة قائدهم الأمير المغولي أرغون[٤]، وكان لهؤلاء خططهم ومنازلهم في المدينة حتى إنهم كانوا يشكلون جزءاً من سكانها، فهل أصبحوا حقاً بمثابة طبقة في المجتمع البغدادي؟

نعم فليس هذا شيئاً نفترضه، فلقد كان لهؤلاء تأثيراتهم في الحياة العامة في بغداد، وعلاقاتهم التي كانوا يرتبطون بها مع أهلها، وهكذا سيكون أكثر من ثلاثة عشر ألفاً، وهم في حالة استقرارهم في المدينة وترابطهم وعلاقاتهم ومؤثراتهم وتبادلاتهم الاجتماعية، ليسوا بمعزل عن التكوين الطبقي العام فيها، وبخاصة وهم يمثلون نسبة عالية من سكانها، الذين لم يكونوا قد تجاوزوا آنئذ الثلاثين ألفاً[٥] وذلك بإشارة من طرف خفيّ للخواجه نصير الدين الطوسي[٦]، الذي قال إنه سمع من أحد أعوانه الأماثل الهاشميين، أنه لم يتبق من أهل بغداد بعد استباحتها من الجنود المغولية إلاّ ما يزيد قليلاً عن ثلث الألف ألف (المليون)[٧].

أما العنصر الفارسي في المجتمع البغدادي، فأغلبه يتمثل، بطبقة الحكام الذين نصّبهم المغول لإدارة المدينة، مع أعوانهم ومساعديهم ثم صاروا فيما بعد في عداد طبقة مهمّة ومتنفذة، ليس في بغداد فحسب، بل في العراق عامة. ويلقى ابن الفوطي، ضوءاً على المهمّات التي اضطلعت بها هذه الطبقة بعد استقرار الأوضاع في بغداد غداة الغزو المغولي وهي تنحصر في إعادة تعمير المدينة وإصلاح مشاهدها ومدارسها ومساجدها

وربطها وترميم ما خُرّب من معالمها، وإعادة الجرايات والأعطيات والأخباز والكسوات إلى علمائها ومحدثيها ومتصوفيها[٨] وليحدثنا صاحب كتاب الحوادث الجامعة، بأنه أكثر هؤلاء الفرس جاءوا بمعيّة هولاكو، وكان في مقدمتهم، علاء الدين عطا ملك الجويني[٩] الذي ألزمه هولاكو، ديوان العراق ثم نُصّب والياً عليه وحاكماً بأمره، وقد استمر في منصبه أكثر من إثنين وعشرين عاماً. وتولى بعده شرف الدين هارون من الصاحب شمس الدين بن محمد الجويني[١٠] ثم أعقبه ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي[١١] وهو أحد مماليك عطا ملك الجويني، الذي أصبح مشرفاً بالعراق[١٢] ونظن، إن وجود هؤلاء من العناصر الفارسية ومواليهم واتباعهم وذراريهم في بغداد، كان له كبير الأثر في الحياة العامة فيها، حين امتلكوا الدور والضياع والزوايا والتكايا ومرافق السبيل في الطرقات والشوارع.

أما الخواجه نصر الدين الطوسي، فكان هو الآخر ممن صحب هولاكو إلى بغداد وكان متولياً لأوقاف الامبراطورية الايلخانية، وبعد قدومه بغداد ألحق إليه، النظر في أوقاف العراق[١٣]. وجاء أن الخواجه الطوسي، إستصحب معه طائفة كبيرة من الناس، منهم العلماء والفقهاء وأصحاب المهن والصنائع، بعوائلهم فمارسوا الحياة الطبيعية حين استقروا في بغداد[١٤].

وكان علاء الدين عبد الرحيم به محمد القزويني المراغي[١٥] قد عُيّن قاضي قضاة العراق وحددت إقامته في بغداد ثم أصبح رئيساً لفئة القضاة والعدول وأصحاب القضاء[١٦].

ولم تلبث طبقة الحكام الفرس ومساعيهم إن ازداد عديدها حتى إننا نجد أسماءهم وسيرهم وتراجمهم قد ملئتها مصادر هذا العصر المهمّة مثل الحوادث الجامعة وجامع التواريخ وتلخيص مجمع الآداب والبداية والنهاية وخلاصة الذهب المسبوك وتاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار وآثار البلاد وأخبار العباد وذيل مرآة الزمان وغيرها كثير، حتى أن القلقشندي قال: ((لما انقرضت الخلافة العباسية، استولى المغول والأعاجم على بغداد))[١٧].

الحق أن هذه الطبقة لم تتحكم بالمجتمع البغدادي، سياسياً واجتماعياً ولا آثرت مصالحها الخاصة، بل أسدت خدمات جليلة أقلها تمتين الآصرة الاجتماعية وترسيخ

الاستقرار والقضاء على التنابذات والتناحرات وحتى النزاعات والصراعات العنصرية والطائفية واللغوية والدينية والثقافية، التي كانت قد حكمت العصور العباسية المتأخرة؛ وهي كذلك قضت على مظاهر القلق والخوف من العدوان الخارجي وطمأنت النفوس إلى العمل المثمر وتوسيع دائرة الرخاء وزيادة الثروة والعمران، ففي كتاب الحوادث الجامعة ما يشير إلى ذلك من خلال سيرة صاحب الديوان عطا ملك الجويني الذي حكم العراق إثنتين وعشرين سنة ((وكان عادلاً، حسن السيرة، أديباً فاضلاً، جمع تاريخاً سماه " جهان كشاي "[١٨] وله رسائل جيدة واشعار حسنة[١٩]، وتوضح رسالته إلى أهل بغداد، عدله وسيرته[٢٠] وهو يمثل رأس طبقة تحتل موقعها في المجتمع البغدادي. وقد أجمل أيامه في بغداد بقوله[٢١] :

أيامنـــا بالطيـــب لـــو ترجـــعُ قـــرّت عيـــونٌ ورقّـــت أدمـــعُ

يـــا حبـــذا عـــيشُ تقضـــى بـــهِ لـــو كـــان لـــي مِـــن ردّهِ مطمـــعُ

وأشاد المؤرخون بالصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني، فيذكر الذهبي: ((وكان علاء الدين وأخوه، فيهما كرم وسؤدد وخبرة بالأمور وفيهما عدل ورفق بالرعية وعمارة للبلاد، وليّ علاء الدين نظر العراق سنة نيّف وستين بعد العماد القزويني، فأخذ في عمارة القرى، واسقط عن الفلاحين مغارم كثيرة إلى أن تضاعف دخل العراق وعُمّر سوادُها، وحفر نهراً من الفرات مبدأه من الأنبار ومنتهاه إلى مشهد علي عليه السلام، فأنشأ عليه مئة وخمسين قرية وقال: ((عمّر صاحب الديوان بغداد حتى كانت أجود من أيام الخليفة، ووجد أهل بغداد به راحة... وكان الرجل الفاضل إذا صنف كتاباً ونسبه إليهما تكون جائزته ألف دينار، وقد صنف شمس الدين محمد بن الصيقل الجزري[٢٢] خمسين مقامة وقدّمها فأعطى ألف دينار وكان لهما إحسان إلى العلماء والصلحاء، وفيهما إسلام ولهما نظر في العلوم الأدبية والعقلية))[٢٣].

ويبرز التكتل العلوي في بغداد، بعد إطاحة الخلافة العباسية، كطبقة ذات شأن، فقد استردوا نفوذهم الروحي واحترامهم، بعد تعرضهم طوال أكثر من خمسة قرون إلى اضطهادات ونكبات ومصائب على يد أبناء عمومتهم العباسيين، إذ قمعت ثوارتهم وحركاتهم وطورد نقباؤهم وأشرافهم، وشردوا وقتلوا[٢٤]، ولكننا بدأنا نسمع عن

نقاباتهم في المجتمع البغدادي الجديد، إذ كان أكبر نقبائهم يقيم في بغداد كما كان لهم نقباء ومشرفون، ينظرون في أحوالهم العامة، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وحين زار الرحالة ابن بطوطة، العراق في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ذكر هؤلاء النقباء؛ فإذا وصل إلى مدينة النجف أطلق على نقيب العلويين اسم ((نقيب الأشراف)) وقد أشاد بمنزلته الرفيعة وقال: ((وهو يحكم المدينة حيث لا وال فيها غيره ولا مغرم ولا مكّاس (صاحب المكس وهي الضريبة تؤخذ عن البضائع) للسلطان ولا لغيره، وإن له ترتيب الأمراء الكبار في سفره))[٢٥] ولوحظ أن نقيب العلويين في بغداد لم يكن أحد كبراء موظفي الدولة ولكن كان له حضور مهمّ مع صاحب الديوان والأمراء. ففي بداية العصر المغولي الإيلخاني، عُيّن عز الدين محمد بن موسى الموسوي العلوي، نائباً للشرطة وهو كان في العصر العباسي الأخير نقيباً للعلويين وقد اختفى إبّان دخول الجند المغولية بقيادة هولاكو إلى بغداد[٢٦].

فيما تولى علي بن طاووس، النقابة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م حتى سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[٢٧].

ومن الحق، أن نقول، أن صاحب الديوان عطا ملك الجويني وموظفي الدولة والشحنة المغولي في بغداد، ينظرون إلى العلويين كطبقة عانت من اضطهاد العباسيين وتعسفهم ولها الآن أن تحصل على حقوقها وتتبوء مركزها، حتى أن هولاكو حين نزل على باب بغداد بجيوشه لاسقاط الخلافة ((أمر البتيلتجية " وهم الرماة " ليكتبوا على السهام بالعربية: إن الأركونية (أي تبّاع أركون ومعناه الدهقان المسيحي العظيم وهي كلمة يونانية) والعلويين والداذنشمدية (وهم أعوانهم وخدمهم) وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله)[٢٨] وبعد أن استقر هولاكو في بغداد حضر أكابر العلويين إليه وسألوه حقن دمائهم فأجابهم وعين لهم شحنة يقضي حوائجهم[٢٩].

وليس أدلّ على ذلك من إشارات صاحب الحوادث الجامعة على تعظيم مشاهد الأئمة عليهم السلام، فقد ذكر أن السلطان الإيلخاني غازان قصد مشهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فزار ضريحة الشريف وأمر للعلويين بشيء كثير، ثم قصد مشهد الإمام الحسين عليه السلام وفعل مثل ذلك سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٨م)[٣٠]، وبعد سنتين قصد السلطان المشاهد نفسها وأمر للعلويين والمقيمين بها بمال كثير))[٣١].

وفي ٦٦٠هـ/١٢٦١م أمر علاء الدين صاحب الديوان عطا ملك الجويني، ببناء رباط بمشهد الإمام علي عليه السلام ليسكنه المقيمون هناك، ووقف عليه وقوفاً كثيرة وأدرّ لمن يسكنه ما يحتاج إليه[٣٢].

وفي ٦٨٨هـ/١٢٨٩م قصد سعد الدولة صاحب ديوان الممالك السلطانية مشهد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وزار ضريحه الشريف، وأطلق للعلويين والقوّام مئة ديناراً))[٣٣].

وهناك بيوتات وعائلات ذات جذور تعود إلى العباسيين، ممن كانوا يديرون دفة الحكم طوال الحكم العباسي وهم هؤلاء الذي يمكن أن نسميهم طبقة الانتماء العباسي أو الطبقة العباسية، يمكن أن نلمس وجودها في بغداد على الرغم من إبادة الكثير منهم وتشريدهم أثناء الهجوم ع لى بغداد، لكن بعضهم استعاد نشاطه وحياته، ولعل من بين العائلات تلك القديمة في المجتمع البغدادي عائلة ((الدوّامي))[٣٤] التي ذكرها ابن الفوطي وأصلها من باب الطاق، وهي محلة كانت قريبة من مشهد الإمام أبي حنيفة النعمان، وقد سُمّوا بال الدوامي نسبة إلى زوجة أحد خلفاء العباسيين المسماة ((الدواميّة))[٣٥] وكان يمثلهم في عصر الإليخاني، مجد الدين أبو الفضل محمد بن شمس الدين بن الدوامي البغدادي الذي كان فقيهاً على مذهب المالكية ومدرساً في المدرسة المستنصرية[٣٦].

وهذه عائلة ((آل الدامغاني)) وأصلها من دامغان[٣٧] نزحت إلى بغداد أيام الخليفة القائم بأمر الله (٤٩٦هـ/١١٠٣م) وكان منهم القضاة، وقضاة القضاة، وقد تقلّد منهم فخر الدين أحمد بن الدامغاني من صاحب الديوان عطا ملك الجويني ولاية ((صدرية عرض الجيش)) ثم ولاية ((ديوان الزمام))[٣٨] وعائلة ((آل الصيّاد)) وكان يمثلهم نور الدين أحمد بن الصيّاد التاجر[٣٩]. و ((آل الأعرج)) ويمثلهم شمس الدين علي بن الأعرج، وكان حمّالاً ثم صار بائعاً للغلّة والتمور في الخانات، وكان أميّاً ثم تولى تمغات بغداد، فأثّرت حاله واستعمل مع الناس والمتصرفين وأهل البيوتات والمروءة وواصلهم وأحسن إليهم وتحمّل تحمّلاً ظاهراً وصار له مماليك والترك والروم والخدم))[٤٠] و ((آل المخرّمي)) وكان أصلهم من محلة ((المخرّم))[٤١] في بغداد ويمثلهم أبو سعد سعيد المبارك المخرّمي والي صدر دجيل، ثم نقل إلى مشيخة رباط الحريم بموجب التماسه وإيثاره

للعزلة والعبادة[٤٢] و ((آل الناقد)) ويمثلهم أبو الأزهر، نصير الدين ابن الناقد الذي اشتهر بالتدين والثروة وإنشاء الرسائل))[٤٣].

ولا غرو، فإن هذه العائلات كما وصفها ابن الفوطي، كانت من بيوتات السؤدد والفضل والتقدم، وبيوتات الاثيل المشهور والرياسة، والعدالة والقضاء والعلم[٤٤].

وفي إشارة لصاحب كتاب الحوادث الجامعة، إن هناك آخرون من البغداديين، كانوا عملوا في خدمة المستعصم بالله واشغلوا مناصب أيام الايلخانيين[٤٥] وهم من بيوتات قديمة معروفة[٤٦] ربما تحسب على هذه الطبقة من العائلات في توجهاتها وعلاقاتها وارتباطاتها الاجتماعية.

أما اليهود في المجتمع البغدادي، فهم طائفة تتشكل من عائلات شغلت مناصب في بغداد وكان عميدها سعد الدولة اليهودي (٦٩٠هـ/١٢٩١م) الذي عيّنه السلطان الايلخاني أرغون، متولياً لديوان الممالك، وهي أكبر وظيفة يعهدها الايلخان إليه[٤٧] مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد، أن الطائفة اليهودية، قد احتلت كطبقة، مكانتها المتنفذة في بغداد سياسياً واجتماعياً. هنالك يأتي النصارى في بغداد حين كانوا قد قاموا بدور مهم في تكريس سلطة المغول في المدينة، فقد ورد في وقائع الفتح، أنهم لم يتعرضوا للأذى، بل كان هناك حماية لهم بحسب توجيهات هولاكو[٤٨] وهم تعاونوا مع الكتائب المغولية المهاجمة حتى إنهم مكّنوهم من الاستيلاء على ((برج العجمي))[٤٩].

وكان الجاثليق ((ميخا)) وأتباعه هم الذين قاموا بهذه المهمّة[٥٠] ثم أخذ المغول بعد ذلك ينتشرون إلى الأسوار الأخرى للقضاء على جند الخليفة[٥١].

لقد جاء في وصايا الخان الأعظم المغولي ((مانغوخان)) لأخيه هولاكو بالتزام سياسة عليه ترسمها فيما يتعلق بفتح البلدان وإخضاع الأمم، ولعل أهمها مشاورة ((دوقوز خاتون)) زوجة هولاكو في القضايا والشؤون المتعلقة بإزالة الأعداء في أقاليم خراسان والعراق[٥٢] ويفهم من إشارة ابن العبري وهو يشيد بها، ويقول أنها من الخواتين الكبار والمسيحية المؤمنة[٥٣] فإنها ستأكد إيمانها بتخليص أبناء دينها مما قد يتعرضون له على أيدي الجند المغولية أثناء الهجوم على بغداد، حين وضعوا السيف في أهلها فقُتلوا وعُذِبوا بأنواع العذاب وأسروا ونهبوا[٥٤].

ونقرأ في أمر هولاكو، إلى مطلقي السهام من الجند المغولية، أن يكتبوا على سهامهم بالعربية: ((أن الدهقان النصراني العظيم، آمن على نفسه وحريمه وأمواله))[٥٥] حتى إن صاحب الحوادث الجامعة قال: ((لم يبق من أهل البلدة إلاّ القليل ما عدا النصارى، فقد عيّن لهم " شحان " حرسوا بيوتهم والتجأ إليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عندهم))[٥٦].

كان المجتمع البغدادي، قبيل الاجتياح المغولي، يضم طبقة الرقيق والمماليك، والخدم والجواري، وهي الطبقة التي كانت تمثل أدنى الطبقات الاجتماعية؛ وهؤلاء يُعدّون نوع من المتاع المتميز للخلفاء والأمراء والوزراء وكبار الموظفين والأعيان والأغنياء والتجار والصفوة[٥٧]، وأكثر هؤلاء كانوا يجلبون من الأحباش[٥٨] والشركس[٥٩] والأفرنج[٦٠]. ولم تمض إلاّ مدة قليلة حتى بدأنا نسمع بوجود هذه الطبقة في المجتمع الجديد، حين ظهرت شخصيات من الأعيان والأمراء المغول والفرس ومن بقايا النظام القديم التي نجت من التنكيل، أخذت باستخدام هؤلاء، ليدلّ ذلك على بقاء المفاهيم الطبقية في المجتمع البغدادي.

غير أن الدكتور جعفر حسين خصباك، يرى غير ذلك، أن المجتمع العراقي عامة ظل مفتوحاً مطاطاً غير طبقي، ويورد مثالاً عن شمس الدين علي بن الأعرج (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م) الذي كان في أصله حمّالاً ولكنه أثرى ودخل وظائف الحكومة وملك المماليك والخدم والجواري من الترك والروم[٦١].

ولكن لا ينبغي التعميم بهذا المثال أولاً، ثم إن شمس الدين الأعرج تحوّل إلى غير طبقته، وهذا يحصل في المجتمعات الطبقية، كما إن العكس يصحّ أيضاً حين تتحول طبقات في السلّم الاجتماعي الأول إلى طبقات دنيا.

وأخيراً إذا أردنا أن نقرر مقياساً للتقسيم الطبقي في المجتمع البغدادي قبل الواقعة، فلابد أن نتخذ المال للتفريق بين الطبقات الخاصة والطبقات العامة، اللتان تشير إليهما المصادر، فالأولى كان يمثلها الخليفة وجمهور العائلة العباسية وبعض الموالي والموظفين الكبار والتجار وأصحاب العقارات والضياع والأراضي وقادة الجيش كل هؤلاء كانوا يمتلكون المال والسلطة. فيما يندرج في الطبقة العامة غالبية الناس، من الفقراء والعلماء ورجال الدين من الفقهاء والمتصوفين وطلاب العلم والحرفيين وأصحاب الصنائع

والفلاحين والجند، وهو ما توضح في المجتمع البغدادي ولكن باستقطاب جديد أيام الإيلخانين، قدّمناه بشيء من التوضيح.

بيد أن الدكتور جعفر خصباك، يرى أن المال وحده لم يكن الأساس للتقسيم والفرز الطبقي، بنظر أهل ذلك العصر، لأن العلم والتدين هما من أسباب التقدم والقيادة الاجتماعية، بل ربما كان من أهمها يأتي بعدها، النسب والمشاركة في الحكم ونوع الحرفة(٦٢).

وأنت وأنا نستطيع القول، أن أهل العلم والمتدينين والمنتسبين والمشاركين في الحكم، يحرّكهم المال الذي تغدقه عليهم السلطة الحاكمة، مما ينأى بهم عن طبقتهم وعن الطبقة العامة خاصة التي لا تلتق بهذه السلطة، لذا فإن مفهوم سيادة المال، ظلّ امتيازاً محركاً للطبقة الخاصة في مجتمع بغداد بعد الواقعة.

الخـــاتمة:

البحث عن مدينة بغداد بعد واقعة الغزو المغولي الإيلخاني وسقوطها سياسياً واجتماعياً عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ألفَهُ كثير من الباحثين والدارسين وعرفه كثير من الناس أيضاً، عرفوه كيف إمّحت معالَم بغداد الاجتماعية والأثنولوجية والديموغرافية، وزلزل وقعها حينها العالم الإسلامي بأسره.

هذا معروف، ولكن الذي لا يعرفه كثيرون، هو هذا النحو من البحث وهو كيف استعادت هذه المدينة هيكليتها الاجتماعية وكيف رممت طبقاتها الاجتماعية - في ظل سلطة محتل وثني طاغية، وأصبح لهذه الطبقات أطرها المحددة وفئاتها التي تنتمي إليها في المجتمع البغدادي.

وأول ما يجب أن نلاحظه في المجتمع الجديد في بغداد، هو هذا التقدم الحضاري في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية والثقافية الذي جاءت عليه المصادر الأولية الأساسية المعاصرة وقدمت فيها معلومات مفصّلة في جميع تلك الميادين.

هوامش البحث

(١) مجهول، كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب خطأ لابن الفوطي عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) تحقيق: مصطفى جواد (بغداد - ١٣٦١هـ)، ص٣٤٩.

(٢) ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج أهرون (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول (وقف على تصحيحه وفهرسته الأب انطوان صالحاني اليسوعي) (دار الرائد اللبناني، لبنان - بيروت، ١٩٨٣)، ص١٥٩.

(٣) جامع التواريخ (ترجمة: محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصيّاد، القاهرة - ١٩٥٢)، ج١، ص٧١٤ - ٧١٥.

(٤) عطا ملك الجويني، علاء الدين (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) تاريخ جهان كشاي (ليدن، ١٩١١ - ١٩٣٧) ج١، ص٢١٣؛ جامع التواريخ، ج٢، ص٧٨٩.

(٥) ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب (تحقيق: مصطفى جواد، دمشق - ١٩٦٥)، ج٤، قسم ٢، ص٨٠١.

(٦) ترجمته في: الحوادث الجامعة ص٤١٦؛ رشيد الدين فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، ج١، ص٣٠٤؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٥٠٠ - ٥٠١.

(٧) نصير الدين الطوسي، رسالة فتح بغداد (ترجمة: محمد صادق الحسيني، النجف الأشرف - ١٩٤٥)، ص٣٦٩ - ٥٤١.

(٨) الحوادث الجامعة، ص٤٢٨ - ٤٤٨.

(٩) ترجمته في: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٧ - ٤٩٨؛ رشيد الدين فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، ج١، ص٦٣ الحوادث الجامعة، ص٤٦١ - ٤٦٩.

(١٠) ترجمته في: ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، قسم ٢، ص٨٥٢؛ الحوادث الجامعة، ص٤٠٤، ٤١٠، ٤٤٧.

(١١) ترجمته في: الحوادث الجامعة، ص٤٤١؛ ابن الوردي زين الدين عمر (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) تتمة المختصر في أخبار البشر (المطبعة الوهبية - القاهرة، ١٢٨٥)، ج١، ص٨٠.

(١٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، قسم ٢، ص١٠٢٦ - ١٠٢٧.

(١٣) الحوادث الجامعة، ص٣٥٠.

(١٤) نصر الدين الطوسي، رسالة فتح بغداد، ص٥٥٢.

(١٥) ترجمته في: ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، قسم ٢، ص٨٩٥.

(١٦) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٥١١.

(١٧) أحمد علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشا (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٢)، ج١، ص٩٤.

(١٨) ومعناه غازي العالم أو فاتح العالم يشير إلى هولاكو، وله ترجمتان عن الفارسية العربية والانكليزية (الحوادث الجامعة ص٤٦٠ هامش رقم ١).

(١٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٤٦٠.

(٢٠) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، الترجمة رقم ١٥٣٧.

(٢١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ص١٠٣٧ وجاء في الحوادث الجامعة منوهاً بعطا ملك الجويني في اثنين وأربعين موضعاً مشيداً بسيرته وفضله.

(٢٢) ترجمته في: الذهبي، الحافظ شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م) تاريخ الإسلام، ص٢٠٩؛ رشيد الدين فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، ج١، ص١٧٣.

(٢٣) تاريخ الإسلام، ص١٩٢.

(٢٤) أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م) مقاتل الطالبيين (تحقيق: منشورات الفخر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، لبنان - بيروت، ٢٠١٤).

(٢٥) محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) تحفة النظّار في غرائب الأمصار والأسفار، ص١٩٥.

(٢٦) الحوادث الجامعة، ص٢٩١.

(٢٧) ترجمته في: الذهبي، تاريخ الإسلام وهو (علي بن موسى بن جعفر بن طاووس العلوي الحسني النقيب، نقيب الطالبية توفى سنة ست وسبعون سنة، قال عنه الكازروني: لم يوجد بعده مثله ولا رأيت أحداً على قاعدته)) المجلد ١٢، ص٣٢٠.

(٢٨) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٤.

(٢٩) الحوادث الجامعة، ص٣٦٠.

(٣٠) الحوادث الجامعة، ص٣٩٥.

(٣١) الحوادث الجامعة، ص٣٩٩.

(٣٢) الحوادث الجامعة، ص٤٠٣؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ج٥، ص٣٤١.

(٣٣) الحوادث الجامعة، ص٤٠٢؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٥٠.

(٣٤) مجمع الآداب في معجم الألقاب، ج٥، ص٣١٩.

(٣٥) ابن الدبيثي، أبو عبد الله محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) التاريخ المذيّل على تاريخ ابن السمعاني (نسخة مصورة كانت في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة بغداد - ١٩٦٤)، ج٢، ص١٦٣. (أول من اشتهر منهم الحسن بن علي بن الحسين الدوامي الذي كان وكيلاً لبعض الأمراء العباسيين، وسمى الدوامي لخدمته احدى نساء الخليفة القائم بأمر الله (٤٩٧هـ/١١٠٣م) المسماة الدوامية (الدكتور جعفر حسين خصباك، العراق في عهد المغول الإليخاني، مطبعة العاني، ط١، بغداد - ١٩٦٨)، ص٢٥٥.

(٣٦) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٥، ص٣٢٠.

(٣٧) بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس (ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ج٢، ص٢٨٤.

(٣٨) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٤، قسم ٣، ص٩٩.

(٣٩) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٤، قسم ٣، ص١٢٩ - ١٣٠.

(٤٠) الحوادث الجامعة، ص٤٣٢.

(٤١) وهي محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى، وفيها كانت الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية خلف الجامع المعروف بجامع السلطان خربها الإمام الناصر لدين الله سنة ٥٨٧ (ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص٢١٩ - ٢٢٠).

(٤٢) ابن الفوطي، (مجمع الآداب، ج٤، قسم ٢، ص٣٢٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص١٨٢؛ الحوادث الجامعة، ص٣٨٨.

(٤٣) الحوادث الجامعة، ص٤٦٣.

(٤٤) ابن الفوطي، مجمع الآداب، ج٥، ص١٣٨ - ١٣٩؛ الحوادث الجامعة، ص٤١٨.

(٤٥) الحوادث الجامعة، ص٤٤١.

(٤٦) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص٣٩٠.

(٤٧) ما يعدل الآن رتبة رئيس الوزراء.

(٤٨) يبدو على أكبر الاحتمال أن ((دوقوزخاتون)) زوجة هولاكو التي كانت على دين النصارى، كان لها دور في حمايتهم ورد الأذى عنهم (ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٦١، ٤٩٧).

(٤٩) برج العجمي: هو برج كبير في سور بغداد، قريب من باب الحلبة في الزاوية الغربية الجنوبية منه، وقد اشتهر هذا البرج باتخاذ الشيخ عبد القادر الكيلاني إياه، رباطاً له ثم تربة له بعد موته (ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٣م) الذيل على طبقات الحنابلة (وقف على طبعه وتصحيحه: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمّدية، القاهرة - ١٩٥٣)، ج١، ص٢٩١.

(٥٠) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٤؛ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية في تاريخ ط١، مطبعة المعارف، بيروت - ١٩٦٦)، ج١٣، ص٢٠٠.

(٥١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٣.

(٥٢) رشيد الدين فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، ج٢، قسم ١، ص٢٣٦ - ٢٣٧.

(53) Juvaini Ata - Malik, The History of word conquerar, Translated by J.A. Boyle (Manchester university press, 1958) vol.11, P.612.

(٥٤) الحوادث الجامعة، ص٣٥٩.

(٥٥) تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٤.

(٥٦) الحوادث الجامعة، ص٣٥٩.

(٥٧) ابن الساعي، أبو طالب علي بن انجب تاج الدين (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (عني بنشره الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد - ١٩٣٤)، ج٩، ص١٨٢.

(٥٨) الحوادث الجامعة، ص١٢٣ ((وجاءت بلفظة الحبوش)).

(٥٩) ابن الفوطي تلخيص مجمع الآداب، ج٥، ص٦٩ - ٧٠.

(٦٠) الحوادث الجامعة، ص٢٨٤.

(٦١) العراق في عهد المغول والايلخانين، ص٢٦٩.

(٦٢) جعفر خصباك، العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ص٢٦٢.

قائمة المصادر والمراجع

- مجهول

١- كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة (المنسوب خطأ لابن الفوطي عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ/١٤٢٣م) تحقيق: الدكتور مصطفى جواد (بغداد - ١٣٥١هـ).

- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج أهرون (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

٢- تاريخ مختصر الدول (وقف على تحقيقه وفهرسته: الأب انطون صالحاني اليسوعي (دار الرائد اللبناني، بيروت - ١٩٨٣).

- الهمداني، رشيد الدين فضل الله (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)

٣- جامع التواريخ (ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصيّاد، القاهرة - ١٩٥٢).

- الجويني، عطا ملك، علاء الدين (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٤- تاريخ جهان كشاي (ليدن، ١٩١١ - ١٩٣٧).

- ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)

٥- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب (تحقيق: الدكتور مصطفى جواد، دمشق - ١٩٦٥).

- الطوسي، الخواجه نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م).

٦- استيلاء المغول على بغداد، أو رسالة فتح بغداد بالفارسية (ترجمة: محمد صادق الحسيني، النجف الأشرف - ١٩٤٥).

- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩)

٧- تتمة المختصر في أخبار البشر (المطبعة الوهبية، القاهرة - ١٢٨٥هـ).

- القلقشندي، أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م).

٨- صبح الأعشى في صناعة الإنشا (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة - ١٩٢٢).
• الـذهبي، الحـافظ شمـس الـدين محمـد بـن أحمـد بـن عثمـان بـن قايمـاز التركمـاني (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م).
٩- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، ط بيروت، مؤسسة الرسالة - ١٩٨٦).
• الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م)
١٠- مقاتل الطالبيين (تحقيق: منشورات الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - ٢٠١٤).
• ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
١١- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المسماة: رحلة ابن بطوطة).
• ابن الدبيثي، أبو عبد الله محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)
١٢- التـاريخ المـذيّل علـى تـاريخ ابـن السـمعاني (نسـخة مصـورة كانـت في معهـد الدراسـات الإسلامية بجامعة بغداد - ١٩٦٤).
• ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
١٣- معجم البلدان (دار إحياء التراث العربي، بيروت).
• ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن به شهاب الدين أحمد البغدادي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٣م).
١٤- الذيل على طبقات الحنابلة (وقف على طبعه وتصحيحه: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمّدية، القاهرة - ١٩٥٣).
• ابن كثير، عماد الدين إسماعيل القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)
١٥- البداية والنهاية في التاريخ، ط١، مطبعة المعارف، بيروت - ١٩٦٦).
16 - Juvaini Ata – Malik , The History of word conqueror , Translated by J. A . Boyle (Manchester university press , 1958) .
• ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م)
١٧- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (عُني بنشره: الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد - ١٩٣٤).
• الدكتور جعفر حسين خصباك
١٨- العراق في عهد المغول الإيلخانين (مطبعة العاني، ط١، بغداد - ١٩٦٨).